

الفصل الأول

موضوعية التوجيه .. وإعجاز القرآن

● تمهيد :

كلما كان مصدر التوجيه موضوعياً .. كلما كان أقرب إلى التعبير عن المستوى الإنساني الرفيع : في التفكير .. وفي الذوق .. وفي الإرادة والعمل .. وفي الوقت نفسه كلما بعد أن يكون في مقدور الإنسان المتوسط ، ويكاد يكون خاصاً بأصحاب المواهب والمتفردين في نشاط الإنسان الفكري .. والذوقي .. والإرادي أو العملي .

فإذا خلص مصدر التوجيه : لموضوعية التوجيه .. ولموضوعية المبادئ التي تصور القيم الرفيعة في الفكر الإنساني .. وفي صفاء العلاقات واتسامها بجمال الإنسانية ، وفي العمل والتطبيق وبعده عن الضلال والحيرة : كان هذا المصدر فوق طاقة البشر ، وبالتالي كان معجزاً للإنسان ، مهما استعان في مثله بآخرين معه في الطاقة والقدرة على الإنتاج . وحينئذ يقال : إن هذا المصدر معجز .. كما يقال : إن الذي يدعو لما فيه .. يدعو بتكليف من قوة فوق قوة الإنسان ، وليس من ذاته .. وقد اختير هذا الداعي من تلك القوة المنفوقة لأداء رسالة الدعوة إليه . فهو رسول ... وما يدعو إليه : رسالة .

وإذا ثبت أن رسالة الله التي أرسل بها رسول لم تزل تصور موضوعية التوجيه البشرى فيها لخلوها من التحريف .. فإنها عندئذ تكون الأصل أيضاً في بناء الحضارة الإنسانية . أى في بناء ذلك الإطار الذى يضم كل قيمة رفيعة يسعى إليها الإنسان .. والذى يتحرك فيه الإنسان المتحضر . ذلك الإنسان الذى يرى أن السلام – سلام النفس .. أو سلام العلاقات بين النفوس – هدف الإنسان فى حياته . وسيشير الإيمان بذات الله فى هذا الإطار الحضارى ، بما لهذه الذات من صفات عديدة : إلى جميع القيم الرفيعة التى يجب أن يسعى الإنسان المتحضر لمحاكاتها فى : تفكيره .. وإحساسه بالجمال .. وإرادته فى العمل .

فكل صفة من صفات الله تعتبر قيمة رفيعة يسعى الإنسان المؤمن بالله إلى محاكاتها : فالخلق .. والإبداع .. والعلم .. والحياة .. والإرادة .. والقدرة .. والشدة .. والرحمة .. والغنى .. والسلام .. والهيننة .. إلى بقية الصفات الأخرى له : هى قيم عليا يحاكيها من يؤمن بالله ، ويعبده .

والإيمان بالله إذن هو : منطلق اليقظة إلى وجود القيم الرفيعة فى حياة الإنسان فى إطار الحضارة البشرية . بينما عبادة الله – أو الإسلام أو الخضوع والامتثال لله – هى السبيل إلى تحريك الإنسان المؤمن فى سعيه نحو محاكاة صفات الذات له جل جلاله ، كقيم عليا ينشدها الإنسان ، إذا ما فكر .. أو أراد ، وعمل فى إطار حياته الخاصة .. أو فى دائرة حياته مع الآخرين فى مجتمعه .

والدين إذن إذا كان منهجاً وطريقاً فمرتكزه الأول والأخير الإيمان بالله . وبغير الإيمان بالله لا يعنى الإنسان غير المؤمن قيماً عليا فى حياته .. وبالتالي لا يتحرك فى السعى نحو محاكاتها .

والحضارة الإنسانية هى – بعد ذلك – إيمان بالله ، طالما هى مجموع النشاط الإنسانى فى تفكيره .. وفى ذوقه وإحساسه بالجمال .. وفى مجاله الإرادى الحر . ذلك النشاط الرفيع فى مستواه ، ولن يكون نشاط الإنسان رفيعاً فى مستواه إلا إذا وعى القيم العليا أولاً وسعى إلى محاكاتها بعد ذلك .

وذلك عن طريق الإيمان ... والإسلام ، أى عن طريق الإيمان بالله .. والإذعان له في عبادته إياه .



● ما قيل في إعجاز القرآن :

وقد قيل كثيراً عن إعجاز القرآن ، ولكن ربما لم يقل حتى الآن عن إعجازه ، عن طريق موضوعية التوجيه فيه . كما لم ينوه بالربط بين موضوعية التوجيه وقيام الحضارة الإنسانية .

● اعجاز القرآن بالاسلوب :

هناك من يقول من العلماء بأن إعجاز القرآن ، وصدق دلالاته على رسالة الرسول محمد عليه السلام ، يعود إلى أسلوبه العربى : فى البلاغة .. والفصاحة .. وحسن الصياغة والتركيب . ويعتمدون فى ذلك على مثل ما جاء فى سورة البقرة من قول الله تعالى : « وان كنتم فى ريب (والخطاب موجه إلى المشركين الماديين بمكة) مما نزلنا على عبدنا (والذى أنزل هو القرآن .. وعبد الله هو رسوله محمد عليه السلام) فاتوا بسورة من مثله وأدعوا شهداءكم من دون الله (وهم أصنامهم يحضرون معهم) ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » (١) ..

... فالقرآن يتحدى الكافرين به والذين يعارضونه — وهم عرب مثل الرسول عليه السلام — وأكثر نمرساً منه على الأسلوب فى التعبير : بأن يأتوا بسورة ماثلة لسوره . ولهم أن يستعينوا بما يشاءون من أنصارهم ومعبوداتهم : فى الإتيان بالسورة الماثلة المطلوبة . وفى الوقت الذى يتحداهم القرآن بذلك : يقطع : بأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بالسورة الماثلة . لأن القرآن من عند الله ، وليس من صنع البشر إطلاقاً . وما كان لله لا ترقى لكماله : صنعة الإنسان ، أى إنسان .

ففهم الذين يقصدون بالإعجاز : إعجاز الأسلوب فى البلاغة .

(١) البقرة : ٢٣ ، ٢٤

والفصاحة ، وجودة التعبير : من مماثلة السورة المطلوبة في التحدى ...
 مماثلة الأسلوب العربى للقرآن . فإذا عجز المكيون - وهم عرب - عن
 ذلك ، قامت الحججة عليهم ، وألزموا بالتالى بصدق الرسول محمد عليه
 السلام . وطالما ألزم المكيون بصدق رسالته بسبب عجزهم عن الإتيان
 بسورة مماثلة ... فالبشر جميعاً يلزمون كذلك بصدقها . لأنه عندئذ : يلزم
 العرب المكيون باعتبار أنهم أهل الاختصاص بين الجنس البشرى بأسلوب
 القرآن ، ومتى قامت الحججة على أهل الاختصاص ، فإنها تقوم على الباقين
 الآخرين بين الناس جميعاً : بالأولى .

ولكن إذا قرأنا تعليق القرآن على تحديه في هذا الشأن ، في قول الله
 تعالى في سورة يونس :

« وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه
 (أى من التوراة والإنجيل) وتفصيل الكتاب (وهو الرسالة الإلهية عامة)
 لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بسورة مثله وادعوا
 من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما
 ياتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان عاقبة
 الظالمين » (٢) . .

.. إذا قرأنا تعليق القرآن هنا في قوله : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما
 ياتهم تأويله » .. فإن هذا التعليق يشير إلى أن رفضهم للقرآن كان مبكراً
 وسابقاً على إحاطتهم به .. وكذلك كان سابقاً على عدم وقوفهم على مبادئه
 وأهدافه . إذ لو أنهم أولاً : أحاطوا به علماً .. ووقفوا على أهدافه ومبادئه
 ... ربما ترددوا في رفضه ، لأن فيه من المبادئ والأهداف ما يحمل غير
 المتحزب لهواه على الاعتراف به كمصدر صالح لتوجيه البشرية .

وفي مضمون هذا التعليق ما يدل : على أن « المماثلة » المتحدى بها ،
 ليست مماثلة اختيار اللفظ ، وحسن صياغة التركيب ، بقدر ما هي : في
 صلاحية مبادئه للبشرية وعمومها للناس كافة .. وبقدر ما هي في تجردها
 عن البواعث الخاصة . ولو كانت هذه المبادئ من شخص ، ونتيجة
 لظروفه وبيئته الخاصة ، لما كان لها عموم الصلاحية في التوجيه عندئذ .

● اعجاز القرآن .. باخباره بالغيب :

ويرى بعض آخر من العلماء : أن في بعض آيات القرآن الكريم ما يعبر عن نهايات معينة لبعض مجتمعات بشرية ، أخبر بها قبل أن تقع .. وفي وقت يظن الناس فيه : أن عكس هذه النهايات التي أخبر بها : هو الصحيح لبعض هذه المجتمعات . فيقول في سورة آل عمران :

« قل للذين كفروا (وهم المكيون الماديون) ستنقلبون (أى سينتصر عليكم المؤمنون بمحمد عليه السلام) وتخشرون الى جهنم ، وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا ، (في غزوة بدر) فئته تقابل في سبيل الله وأخرى تافرة يرونهم مثليهم وأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، ان في ذلك لعبرة لأولى الأبصار » (٣) ..

.. فأخبر القرآن عن نهاية المجتمع المادى في شبه الجزيرة العربية بانتصار المؤمنين على الماديين فيه ، في وقت كان يتمتع به هؤلاء الماديون بقوة عددية ، وإعدادية .. بينما المؤمنون كانوا على ضعف في العدد ، والعدة معاً . وضرب القرآن بما انتهى إليه الأمر في « بدر » مثلاً على ما أخبر به من النهاية الأخيرة للماديين التي تنتظرهم .

.. ويقول في سورة الروم :

« ألم . غلبت الروم . في أدنى الأرض (أى في الأرض القريبة المجاورة لشبه الجزيرة العربية . وهى أرض الشام . وقد غلبت الروم في الحرب الشاملة بينها وبين الفرس ، والتي ابتدأت في سنة ٦٠٣ بعد الميلاد ، واستمرت حتى بعد سنة ٦١٠ على عهد الامبراطور الرومانى هيرقل « Heraclius » الذى دام حكمه من ٦١٠ - ٦٤٢ . وفي هذه الحرب اكتسح الفرس الرومان . واحتلوا : حلب .. ودمشق .. ومعظم المدن السورية الأخرى في سنة ٦١١ ، كما سقطت القدس في أيديهم سنة ٦١٤ - ٦١٥ ، تقريباً سبع أو ثمانى سنوات قبل هجرة الرسول إلى يثرب . وقد أحرقت القدس ، وحوصرت ، ونكل بالمسيحيين هناك ، كما أحرقت الكنائس ، وسلبت الآثار المسيحية المقدسة : وفي مقدمتها : الصليب الذى يدعى أن

المسيح صلب عليه . واحتفل رجال الدين في فارس بانتصارهم على رجال المسيحية في القدس) .

« وهم من بعد غلبهم سيفلبون . في بضع سنين ، (وابتدأ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته في سنة ٦١٠ ، وأعلن تبليغه الوحي إلى الناس . وفي هذا الوقت الذي شغل فيه العالم إذ ذاك بانتصار الفرس على الروم ، واعتقد ، أنه انتصار فاصل .. يوحى الله إلى رسوله عليه السلام : بأن هذا النصر قريب الأجل ، أى لا يستمر إلا بضع سنين .. وبأن الرومان سينتصرون على الفرس بعد مضي هذه السنين القلائل انتصاراً ساحقاً . أخبر القرآن بذلك ، والرسول بمكة ، ولم تتقرر هجرته بعد إلى يثرب . وحصل الرومان على النصر في عهد هيرقل (٦١٠ - ٦٤٢) أو بعد الهجرة إلى المدينة . وقد كانت سنة ٦٢٢ م . وقد احتفل هيرقل بهذا النصر في مدينة القسطنطينية أولاً في سنة ٦٢٨ ، أى بعد الهجرة بست سنوات . ثم سار من القسطنطينية إلى مدينة حمص بالشام .. ومن هناك إلى القدس . وأعاد الوضع المسيحي ، الذي كان للإمبراطور الروماني من قبل) .

« لله الأمر من قبل ومن بعد ، (أى أمر الهزيمة والنصر - وكذلك كل شأن في نهايته - يرتبط بإرادة الله وحده) .

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، (أى وانتصار الرومان بعد هزيمتهم : على الفرس ، هو بشرى للمؤمنين يفرحون بها . لأنه انتصار دولة سيعقبه فناء أمة . فالنصر عقد الآن لدولة هيرقل . ولكن سيتحول إلى فناء الإمبراطورية الرومانية في الشرق كله .. وفي شمال أفريقيا ، ويرثهم المؤمنون فيما لهم من ديار .. وأموال .. وشعوب . وهكذا : الحرب بين الرومان والفرس - بغض النظر عن المنهزم والمنتصر فيها - كانت مقدمة لنشر الإسلام وعزة المؤمنين : فيما كان للإمبراطوريتين معاً . ونصر الله الذي يفرح به المؤمنون هو نصره للمؤمنين أنفسهم في شبه الجزيرة .. وما وراء الجزيرة . وليس نصره للرومان باعتبار أنهم أهل كتاب ، كما يدعى في كتب التفسير . وإلا : هل أهل الكتاب مؤمنون بالله في الوقت الذي

يقولون فيه : بالتثليث .. وبألوهية المسيح .. وبادعائهم : أن عزيراً ابن الله ؟ .
يجيب القرآن الكريم على ذلك بقوله : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث
ثلاثة وما من اله إلا اله واحد » (٤) ..

« ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يظنّف الله وعده
ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٥) .. (والله لم يعد بنصره إلا المؤمنين
وحدهم . وهذا يؤكد : أن فرح المؤمنين بنصر الله ليس هو بنصر الرومان
على الفرس . ولكن بنصر المسلمين أنفسهم : في « بدر » أولاً .. ثم بعد
ذلك خارج الجزيرة في دنيا الإمبراطورية الفارسية ، والأخرى
الرومانية) .

.. وهكذا يخبر القرآن بأمرين تحققتا بعد فترة من الزمن :

أولاً : يخبر قبل الهجرة من مكة إلى يثرب بانتصار الروم على الفرس .
ولم يقع هذا الانتصار إلا بعد ست سنوات من الهجرة .

ثانياً : يخبر بأن المؤمنين سيفرحون بنصر الله لهم على الماديين المكيين
بشبه الجزيرة ، وعلى الروم والفرس جميعاً . ويخبرهم بذلك وهم أيضاً
بمكة يلقون الهوان من المكيين الذين لا يعدون شيئاً في مواجهة الفرس ،
أو الروم . وقد فتح المسلمون مكة انتصاراً على المشركين ، ودخلوا بيت
المقدس ، كما فتحوا القسطنطينية ، ودخلوا فارس وأطراف الإمبراطوريتين .

فإخبار القرآن بهذه الأمور المعيبة يتخذها بعض العلماء دليلاً على صدق
الرسول عليه السلام في رسالته . فالرسول عليه السلام كإنسان ليست له
من الأهلية أن يخبر بما أخبر به القرآن هنا . والقرآن إذن ليس من
الرسول ، ولا صادراً عنه . بل هو وحي من الله إليه .

ولكن أيضاً لو قرأنا في شأن القرآن في مواجهة المكيين الماديين ، قوّل
الله تعالى :

« أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، أن في ذلك لرحمة

(٥) الروم : ١ - ٦

(٤) الأئمة : ٧٣

وذكرى لقوم يؤمنون» (٦) .. في رده على الماديين المكيين عندما طلبوا آية مادية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في قولهم قبلًا : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، (أى عدأ القرآن) قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين » (٧) .. لو قرأنا هذا الرد : لبان لنا أن أمرًا آخر وراء الإخبار بالغيب وهو ما ينطوى عليه القرآن من هداية لصالح الناس « ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .. هو السر في حجته الآن ، وفي كونه دليلًا على صدق الرسول عليه السلام .

ولكن ليس معنى ذلك : أن الإخبار بالغيب .. كحسن النظم والصياغة في الأسلوب من قبل .. ليسا من الجوانب المميزة في القرآن ، والتي تدل على سموه وارتفاعه عن طاقة البشر . إلا أنه قد يواجه الإخبار بالغيب : بأن تحققه كان من الصدفة ، أو كان نتيجة نظرة بعيدة في حركة التاريخ وظروف أحداثه . كما قد يواجه الأمر الثاني بأن إدراك قيمة الصياغة في أسلوبه وقف على أناس معينين ، وفي جيل خاص ، وهو جيل المنافسة في التعبير في الأسواق الموسمية ، التي كانت تقام من وقت لآخر في شبه الجزيرة .



الأسواق الموسمية

● موضوعية التوجيه :

إن أي عمل عادي للإنسان - أي ليس فوق مستوى البشر - قد لا يسهم إطلاقاً في الحضارة البشرية . وكلما تميز عمل لإنسان : في دقته .. وفي إبداعه .. وفي تجرده عن البواعث الشخصية والأهداف الخاصة : كلما كان إسهامه في بناء الحضارة ، بقدر ما له من مستوى ودرجة في التمييز .

إن الحضارة الإنسانية بمعناها الذي ينم عن جوانب الإنسانية في : الذوق والجمال .. والإرادة والعزم .. والفكر والمنطق : هي حصيلة الإسهامات العديدة من الأفراد في هذه الجوانب . ولا يدخل هذه الحصيلة

(٧) العنكبوت : ٥٠ .

(٦) العنكبوت : ٥١ .

إلا ذلك الإنتاج للإنسان الذي كان أقرب إلى قمة الإنسانية ، منه إلى مستوى آخر أدنى من هذه القيمة .

والتجرد في الإنتاج عن البواعث الشخصية والأهداف الخاصة هو الإطار العام - أو الضابط الكلي - لما يسمى بمستوى القمة في الإنسانية . لأن عيوب الإنتاج الإنساني ، أو النقص فيه ، الذي يصحبه : يرجع إلى مدى تأثير الشخص في إنتاجه بعوامل غير إنسانية .. أى إلى تأثيره بما يتصل بآثاره . لناخذ مثلاً : عدم الإبداع في الإنتاج . نجد أنه لا يعود إلى عدم المهارة وحدها ، ولا إلى عدم التمرس فيه فقط . وإنما لعامل آخر عداه ، حتى ولو توفرت المهارة للإنسان المنتج . وهذا العامل هو عدم الإخلاص للروح الإنسانية فيه . فالذي يركز على الكسب المادى من وراء إنتاجه الفنى لا يبدع في إنتاجه . والذي يؤثر الكم في إنتاجه على النوع فيه ، مع توفر المهارة الفنية له : لا يبدع أيضاً في الإنتاج . ومن ثم لا يبدع في العمل ولا يتقنه . ومن لا يتقن العمل يعرض غيره للخداع وقبول الخدعة . ومن يعرض غيره للخداع يبعد كثيراً عن قمة الإنسانية ، بل ربما ينزل تماما عن مستواها .

ومهما كان من شأن الإنسان في تجرده فإنه بحكم شهوته وهواه .. أى بحكم غرائزه وميوله : فإنه لا يصل في عمله إلى القمة في مستوى الإنسانية . أى أن عمله : إن دل من جانب على سمو في إنتاجه .. فإنه من جانب آخر يدل على تدل في هذا السمو ، لا يرقى به إلى القمة . فحتماً سيوجد نقص ، تأثير فيه بظروف ذاته الخاصة .

ويعنى ذلك : أن التجرد التام فيما يعبر عن مستوى الإنسانية .. وفيما يضع للمستوى الإنساني من مبادئ : ليس في استطاعة الإنسان . وهو بالتالى خارج عن إمكاناته البشرية ، ويمثل بالأحرى قدرة فوق قدرته ، وطاقه علياً لا يصل إليها الإنسان مطلقاً . والحضارة الإنسانية التي تقوم على هذا المستوى الكامل من التجرد هي حضارة أصيلة في تعبيرها عن الإنسانية .. وفي صلاحيتها للبشرية .. وفي اقتباس الإنسان منها ، والهداية بها : فيما يفكر .. ويريد .. وفيما يسلك .

فهل تجرد القرآن فيما عبر للإنسانية من مبادئ؟

هل كانت مبادئه فوق إنتاج الإنسان - أى إنسان - وتصور فى ذاتها
قمة الإنسانية فى أعلا مستواها ؟

هل القرآن خارق للعادة .. أى هل هو معجز للإنسان ؟ .. وهل هو
آية صدق على أن المتحدث به لم يتحدث به من ذاته .. وبسبب ذاته ؟ .

* * *

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتحدث عن القرآن من ذاته ..
ولا بسبب ذاته .. إنه أوحى إليه ، وكلف بتبليغه للناس . وآية ذلك :

أولاً : أنه سجل أنواعاً من العتاب لرسول الله عليه السلام بسبب ما أخذ
عليه فى سياسته فى الدعوة .. وما أخذ عليه كذلك فى سياسته الأخرى فى
الحرب ، بما يفضل الإنسان عادة أن لا تذكر هذه المآخذ علناً وفى سجل
تاريخى .

ثانياً : أنه سجل خصوصيات أسرته ، بما لا يرغب الإنسان عادة فى أن
يعلمه غيره من الناس . وما سجله هنا وهناك .. يدل أكيداً على أن الرسول
عليه السلام لم يتحدث بالقرآن من ذاته .. ولا بسبب ذاته . فليس هناك
إنسان يتحدث من ذاته وبسبب ذاته فى إنتاجه الفكرى : وينبغى أن يتحدث
عما أخذ عليه فى السياسة والتوجيه .. أو عما يسىء عادة وبحسب العرف : له
فى أسرته الخاصة .

.. يسجل القرآن ما أخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سياسة
الدعوة :

من أنه لم يتخلص تماماً - ويستحيل عليه ذلك لأنه بشر - من التأثر
بالزعامة والجاه فى قومه .. وأنه من أجل ذلك مال تفضيلاً إلى مجاملة الزعماء
والوجهاء ، ولو على حساب الضعفاء المؤمنين به .. أى ولو على حساب
عواطفهم وأحاسيسهم . ويشير إلى قصة ابن أم مكتوم ، فيما يحكيه فى
قول الله تعالى :

« عبس وتولى . (أى قطب الرسول عليه السلام وجهه وأعرض

بميله وتفسه) ان جاءه الأعمى . (أى عندما قدم عليه الأعمى وهو عبد الله ابن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بنى عامر بن لؤى : المعروف بابن أم مكتوم ، وقد أخذ يكرر السؤال له : عن رغبته فى أن يعلمه الرسول شيئاً مما نزل عليه من الوحي . وهنا كان عليه السلام مشغولاً ببعض وجهاء قريش فلم يعره أهمية وضاق صدره به . وممن كان مشغولاً بهم : عتبة : وشيبة ، ابنا ربيعة .. وأبو جهل بن هشام .. والعباس بن عبد المطلب ، وأمّية بن خلف .. والوليد بن المغيرة) .

« وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتتنفعه الذكرى . (وهنا سبب العتاب على الرسول عليه السلام فى أنه لم يلتفت إلى ابن أم مكتوم . وكأنه يقول له : إن هذا الأعمى ربما يرجى منه الخير للدعوة . فقد تزداد نفسه صفاء .. وبالتالي يزداد إيماناً بها . وعندئذ لا ينسى ما تعلمه من أمرها .. ولا يقصر فى ترديده للآخرين) :

« اما من استغنى . فانت له تصدى . وما عليك الا يزكى . واما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فانت عنه تلهى » (٨) . (أى من أمثال ما اتجهت إليهم أيها الرسول عليك صلوات الله ، وانصرفت لشأنهم عن شأن هذا الضعيف . فهؤلاء بسبب زعامتهم وجاههم .. وبسبب ما يملكون من مال : يرون أنهم فى غنى عن أن يتبعوك ويكونوا لك مؤمنين بما تدعوهم إليه . ولا يهمهم أن تتظهر نفوسهم من المظالم والعبث ، بقدر ما تهمهم : المحافظة على الجاه والزعامة . وبهذا الانصراف عن الأعمى من جانب . والإقبال على هؤلاء الوجهاء من جانب آخر : أملت فيمن لا يؤمل فيهم .. وتركت من موضع الأمل ، بشأن دعوتك . وما فعلت ذلك إلا تحت الانطباع الذى يخلقه الجاه ، وتوحى به الزعامة . وهو انطباع خادع يحمل على الظن بالاتتماع بأصحاب الجاه والزعامة ، مع أنهم الذين يربحون دائماً ويتركون غيرهم يعيشون فى أمل فيهم والتقرب إليهم) .

.. ويوضح له هذا المعنى فى صورة قانون عام : فيما يقصه فى سورة الكهف

(٨) عبس : ١ - ١٠

« وائل ما أوحى إليك من كتاب ربك ، لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً . (أى ملجأ) واصلب نفسك (أى خذ نفسك بالصبر والتحمل) مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه (أى مع أولئك الذين أخلصوا في إيمانهم لله وحده ، والذين يتجهون إليه في كل أوقاتهم ، لا يطلبون منفعة مادية . إنما يقصدون وجهه ورضاه فحسب) .

« ولا تمد عيناك عنهم (أى لا تتجاوز بصرك هؤلاء المخلصين . وهم الضعفاء في القوم) تربية زينة الحياة الدنيا ، (بالاتجاه إلى الآخرين من الزعماء وأصحاب الجاه) .

« ولا تطع من أثقلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً . (وهم أولئك المستكبرون : أصحاب الزعامة والنفوذ) .

« وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٩) . .

.. في هذه الآيات يأمر الله سبحانه رسوله محمداً عليه السلام بأمور تحدد : معالم الطريق السليمة للدعوة :

أولاً : يأمره بأن يقتصر في تبليغه للناس على ما يوحى إليه من كتاب الله . ولا يتجاوز به حال . لأنه لا يقبل التبدل ، كما أنه ليس وراءه مصدر آخر لتوجيه البشرية .

ثانياً : يأمره بالوقوف بجانب المخلصين في إيمانهم من أولئك الضعفاء ومن آحاد الناس في قومه . فالخير كل الخير في الوقوف بجانبهم ، وتحمل ما يثيرونه من أسئلة . ولا يترك هؤلاء ليؤمل في الآخرين من أصحاب السيادة والنفوذ في المجتمع . لأنه لو فعل ذلك يكون قد انصرف بالفعل عن الدعوة ، وتأثر بمفاتيح الدنيا وزينتها .

ثالثاً : بأنه يحذر من أن يقع في طاعة الكبراء والزعماء في المجتمع . إذ أن هؤلاء لا يتبعون في سلوكهم وتصرفاتهم إلا هوى نفوسهم .. وقد بلغ وقوعهم تحت تأثير هواهم : مبلغاً لا رجاء في العودة منه . ومن ثم أغلقت قلوبهم دون ذكر الله ، فضلاً عن الإيمان به .

رابعاً : إن وظيفته لا تتجاوز : دور عرض الدعوة ، مجردة عن كل مؤثر خارجي . حتى يؤمن بها من يؤمن .. ويكفر بها من يكفر : عن حرية ومشية إنسانية خالصة .

.. ويؤكد له مرة أخرى : طلبه في : أن يتسع صدره عليه السلام لأولئك الضعفاء من المخلصين في الإيمان بدعوته .. وفي أن يتجنب ما يشعرهم بعدم الرغبة فيهم ، فيقول :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » (١٠) ..

.. وهنا يكشف له : أن الانصراف عنهم يعتبر إساءة يجازى الله عليها . طالما لا يسأل أى من الطرفين عن حساب الآخر ، وعما يرتكبه من ذنوب وآثام ، وطالما : أنه عليه السلام قد قبل من الله مباشرة : التكليف بالدعوة .. وهم قد قبلوا الإيمان بها .

ويتجلى عتاب الرسول عليه السلام : على تأثره كإنسان يعيش في مجتمع فيه المستكبرون والمستضعفون .. وفيه أصحاب الزعامة ، والضعفاء والأرقاء : بوجاهة الوجهاء وزعامتهم : فيما يقوله سبحانه لرسوله في سورة الإسراء :

« وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذن لاتخذوك خايلا . ولولا ان ثبتناك (أى بالإيمان) لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا » (أى تتأثر بهم فيما كانوا يدعونك إليه ، على نحو ما يقوله تعالى في سورة يونس : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا (وهم هؤلاء المكيون الماديون) اثت بقرآن غير هذا او بمله » (١١)) أى بحيث يكون أقرب إلى تأييد اتجاهنا في الحياة ، وليس إلى نقده (اذن لأذفناك ضعف الحياة وضعف المات ثم لا تجد لك علينا نصيراً » (١٢))
وعلى نحو ما سجل القرآن عتابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن ميله في تأثره بزعامة قومه ووجاهتهم .. يسجل

(١١) يونس : ١٥

(١٠) الانعام : ٥٢

(١٢) الإسراء : ٧٣ - ٧٥

كذلك عتابه له على ميله كرسول لأقربائه واستغفاره الله لهم ، رغم أنه يعلم علماً مؤكداً بما ينتهي إليه مصيرهم ، في قول الله تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (١٢) .. وقد سجل عتابه له بعنوان أنه نبي .. وللتابعين له بعنوان : أنهم مؤمنون . لأن وصفه بالنبوة .. ووصفهم بالإيمان : هو مصدر المؤاخذة له ولهم ، في توجيههم إلى الله في أن يغفر لأقربائهم في الدم والقبيلة : شركهم وصددهم عن سبيل الله ، طالما هو عليه السلام ملتزم بدعوته .. وهم يلتزمون بإيمانهم وقد اتفقوا جميعاً من تقييم العلاقات بين الأفراد على أساس الروابط المادية القبلية .. إلى الأسس المشتركة للإيمان وللأخوة البشرية ، وهي أسس تصور القيم العليا في حياة الإنسان .

أما باعتبار أنه إنسان غير نبي .. وأنهم أناسى غير مؤمنين : فليس في ميلهم إلى أقربائهم بطلب الغفران لهم عن جرائمهم : سبب للمؤاخذة والعتاب .



.. وكذلك يسجل القرآن عتابه على ما يأخذه على قيادته عليه السلام : في سياسة الحرب مع الأعداء . فيعتب عليه تبنيه لرأى أبى بكر رضى الله عنه فى أسرى « بدر » . وهو أن يفدى الأسرى مقابل مال ، يحتاجه المؤمنون إذ ذاك ، بدلا من قتلهم ، تقليلا لعدد المشركين فى الجملة من جانب ، وإرهابا لهم فى لقاء المؤمنين من جديد فى موقعة أخرى من جانب آخر ، كما كان يرى عمر رضى الله عنه هذا الرأى . ويقول الله جل شأنه :

« ما كان لنبي أن يكسبون له أسرى حتى يثخنن فى الأرض ، (أى حتى تثبت قدماه على الأرض بقوة المدد .. وقوة الإيمان .. وقوة العدة .. وقوة السيطرة والسيادة) .

« تريدون عرض الدنيا (أى إنكم برأى الإفداء تطلبون الدنيا ، فيما لها من عرض المال) .

« والله يريد الآخرة ، (أى والله يريد لكم جزاء الآخرة ونعيمها .. وليس عرضاً من أعراض الدنيا . وأتم لا تحصلون على جزاء الآخرة إلا بتحمل المشقة في سبيل الإيمان بالله والدعوة إليه . وإقراركم للفدية عدلتم - وأنت نبي - عما يريد الله لكم .. إلى ما يريده المفتنون بالدنيا ، والواقعون تحت تأثير إغرائها) .

« والله عزيز حكيم . (ولكن أعراض الدنيا لا توصلكم إلى العزة والسيادة - ولا إلى الحكمة في التصرف . وعبادة الله عبادة حقة هي : التقرب إليه بمحاكاة صفات ذاته . وقد وصف ذاته - من بين صفات عديدة - بأنه عزيز لا يقهر .. وبأنه حكيم لا يخطيء في حكمه وتدييره) .

« لولا كتاب من الله سبق (أى لولا قضاء من الله قد اتخذ بشأنك وشأن الموافقين معك على الإفداء ، وهو العفو عنكم جميعاً) لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (١٤) .. (أى لتالكم بسبب هذا الرأي عذاب عظيم في الدنيا أولاً ، وهو استمرار تلقيكم الإهانة من الأعداء الطاغين .. واستمرار تلقيكم سخريتهم واستهزاءهم بدين الله ، وبال دعوة إليه ، وبكم كمستضعفين من عامة الناس) .

.. ويعتب عليه أيضاً : تصرفه عليه السلام في موقعة « أحد » إذ أرسل الطلائع في جيش المؤمنين يستطلعون أوضاع الأعداء المشركين . وقبل أن تعود هذه الطلائع غنم المؤمنون بعض ما للأعداء من مال ومتاع ، فقسمه عليه السلام على الحاضرين في ميدان القتال ، دون أن يحجز للطلائع نصيبهم . ويسمى القرآن - في عتبه على الرسول عليه السلام - هذا التصرف منه : غلولا ، تغليظاً له . إذ الغلول في مدلوله الوصفي : هو الخيانة في غنائم الحرب . فيقول تعالى :

« وما كان لنبي أن يغل ، (أى يتصرف في غنيمة الحرب تصرفاً يشبه الغلول) ومن يغل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (١٥) ..

. كما يعتب عليه أنه أذن لبعض المنافقين في التخلف عن الخروج إلى ميدان القتال مع بقية المحاربين . وهذا الإذن كان إبقاء على ستر تفاقهم . ولكن لمصلحة الأمة : في داخلها .. وفي ميدان القتال مع أعدائها : يجب أن يعرى المنافقون حتى يظهر أمرهم واضحاً ، فلا يصدقون بعد ذلك فيما يقولون .. ولا يعتمد عليهم في معرفة أسرار المؤمنين ، أو في مباشرتهم أمراً لمصلحتهم . وقد جاء ذلك في قول القرآن الكريم ، في سورة التوبة :

« عفا الله عنك (أى ما قمت به كان غير مقبول عند الله ، فعفا عنك الآن) لم أذن لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا (أى فى إيمانهم) وتعلم الكاذبين . (أى فيه أيضاً . وهم المنافقون) .

« لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم ، (أى ليسوا هم فى حاجة إلى أن يأخذوا الإذن منك فى التوجه إلى ميدان القتال .. أو إلى إتفاق الأموال فى سبيل الله . فهم يعبرون عن إيمانهم الصادق بالجهاد بالأموال والأنفس) والله عليم بالمتقين .

« انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم (أى خروجهم إلى ميدان القتال) فشبّطهم وقيل اقمعدوا مع القاعدین .

« لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالاً (أى ارتباكاً فى صفوفكم) ولا ووضوا خلالكم (وليبشوا بينكم بالتشكيك فى النصر ، وببشر دواعى الهزيمة) .

« يبغونكم الفتنة (أى يقصدون إلى اضطرابكم) وفيكم سماعون لهم ، (أى وفيكم من يسمع لهم ويطيع قولهم . وعندئذ سيكون هؤلاء المنافقين عامل هزيمة لا محالة) والله عليم بالظالمين « (١٦) .. (وما يقصه الله عليك أيها الرسول - صلوات الله عليه - : يقصه عن علم بأولئكم الماديين المشركين الذين يعيشون فى الأرض ظلماً وفساداً . فهذا من طبيعتهم .. وما يتوقع منهم لكم كمؤمنين مخلصين : هو ما يتوقع دائماً من العداوة للإيمان ، ومن أصحابها فى أى وقت) .

.. وما يعلل له القرآن عتابه هنا على الرسول عليه السلام في إذنه لبعض المنافقين بالعودة مع القاعدين وعدم الخروج إلى ميدان القتال : يعتبر من أهم المبادئ في سياسة الدولة والجماعة . وتظير المنافقين على عهد الرسول عليه السلام : من يحصلون اليوم من أعداء الأمة الإسلامية على جنسية مجتمع إسلامي من مجتمعاتها .. أو أولئك الذين يدخلون في الحاضر في الإسلام من هؤلاء الأعداء ، تخفياً وراء الإسلام . فهم بين المؤمنين دعاة هزيمة .. ودعاة تشكيك في إيمانهم وفي قوتهم وفي مصيرهم .. ودعاة تخريب ، وأعوان للأعداء في الخارج ، وعلى أمن البلاد في الداخل .



.. ويسجل القرآن - بجانب تسجيل أنواع العتاب - أموراً من خصوصيات الرسول عليه السلام في أسرته .. وفي حياته . الأمر الذي يدل بالتالي قطعاً على أن القرآن لم يكن حديثاً ذاتياً للرسول ولا مؤلفاً له .. وبالتالي يدل على تجرد القرآن من العوامل الإنسانية الشخصية ، التي يعتبر التجرد منها فوق مستوى البشر .

فهو يسجل :

- ١ - قصة زواجه بزینب بنت جحش .
- ٢ - وشاعة الإفك ، مع عائشة رضي الله عنها .
- ٣ - والخواطر النفسية التي كانت تراود بعض الزوجات للرسول عليه السلام .

.. فعن قصة زينب بنت جحش يقول الله تعالى :

« واذ تقول للذي انعم الله عليه (أى بالإيمان) وانعمت عليه (أى بالعتق وفك الرقبة) . وهو زيد بن حارثة ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم) :

« أمسك عليك زوجك (وهى زينب بنت جحش ، ابنة عمه رسول الله) ، وابق الله (أى فلا تفارقها) .

« وتخفى في نفسك ما الله مبديه (وهو أمره تعالى له باتخاذها زوجاً) .

« وتخشى الناس (أى فى أن لا يكون ظاهره كعبيراً عن باطنك .

إذ فى الوقت الذى تطلب فيه من زيد أن يمسكها فلا يفارقها .. تخاف من اتهام الناس لك بالتعلق بها) والله احق ان تخشاه ، (وذلك بأن تكون صريحاً وواضحاً) .

« فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى

ازواج ادعيائهم (وقد كان زيد متبني للرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى يقول ابن عمر : إن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا : زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : « ادعوهم لأبائهم هو اقسط عند الله » (١٧) .. اذا قضوا منهن وطراً ، وكان امر الله مفعولاً . (ولما تزوجها الرسول قال القائلون فى ذلك الوقت : تزوج حليمة ابنة ، فأنزل الله : « ما كان محمد أباً احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليماً » (١٨) ..)

« ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الدين خلوا

من قبل ، وكان امر الله قدراً مقدوراً » (١٩) ..

وقد كان تعليق عائشة رضى الله عنها على نزول الوحي بهذه القصة ، أن قالت : « لو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتتم هذه الآية » . والقرآن وإن كان وضع تقيمه لهذا الأمر الخاص فى حياة الرسول بقوله : « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الدين خلوا من قبل » (٢٠) .. إلا أن هذا الأمر الخاص قد يستغل ممن يبيتون السوء لرسول الله ولدعوته : كشف القرآن له ، وقد يذهبون فى تأويل الدوافع إليه : إلى أسباب تبعد عن مستوى الإنسانية .. فضلاً عن بعدها عن أخلاقية الدعوة التى يدعو إليها .

.. ويسجل أيضاً واقعة الإفك ، فيقول الله تعالى :

« ان الذين جاءوا بالإفك (وهو اتهام عائشة رضى الله عنها فى عرضها) :

(١٨) الأحزاب : ٤٠

(٢٠) الأحزاب : ٢٨

(١٧) الأحزاب : ٥

(١٩) الأحزاب : ٣٧ ، ٢٨

عصبة منكم ، (أى مجموعة منكم) لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم (أى ممن شارك فيه) ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم (أى ذلك الذى باشر النصيب الأوفر فى اختلاقه وترويجه) له عذاب عظيم . لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيراً وقالوا هذا افك مبين . لولا جاءوا عليه باربعة شهداء ، فاذا لم ياتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما افضتم فيه عذاب عظيم . اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بافواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم)) (٢١) ..

.. فهذه الآيات تشير لحديث الإفك فى حق السيدة عائشة رضى الله عنها . وقد وقع فى السنة الخامسة بعد الهجرة ، إثر العودة من غزوة بنى المصطلق . فعندما تقرر الأمر بالرحيل لجيش المسلمين ، لم تكن السيدة عائشة فى هودجها ، وقد كانت فى صحبة الرسول عليه السلام فى هذه الغزوة بعد أن اقترح بين زوجاته . ولم تكن موجودة عند الرحيل . لأنها ذهبت لتبحث عن عقد لها كانت نزعتة . ولم يلاحظ عند الرحيل : أنها لم تكن بالهودج ، إذ كان مغلقاً وكما ذكرت هى : كانت خفيفة الجسم . فخفة جسمها لا تجعل المساعد لها عند قيام الجمل يشعر بغيبتها إن هى تخلفت . حتى وصلت القافلة إلى الموقف التالى بالطريق . وفى الأثناء وجدت عائشة أن القافلة رحلت فجلست لتستريح ، على أمل أن يعود أحد لياخذها ، ممن يكلف بتتبع القافلة ليجمع المتروك من متاعها . حتى جاء الليل ونامت . وفى غداة اليوم التالى وجدها أحد المهاجرين ، وهو صفوان بن المعطل . وقد كان هو المكلف بتتبع سير القافلة حتى إذا وجد شيئاً ترك ، نقله معه ، فنزل من على بعيره وأركبها عليه وسار على قدميه يقوده بها .

وهذا الحادث أعطى فرصة للأعداء من المنافقين للتقول فى شأن عائشة بغير حق . ويقال : إنه كان على رأس المتقولين عبد الله بن أبى . إذ عندما مر صفوان بهودج عائشة : عليه ، وهو فى جماعة من قومه قال : من هذه ؟ فقالوا : عائشة . فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل ، حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها .

والآيات القرآنية هنا تعرض لهذا الحادث على أنه ليس شراً لمن أسىء إليهم ، وهم الرسول عليه السلام ... وأبو بكر ... وعائشة .. وصفوان . بل ترى فيه الخير : « لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم » .. لأنه انضح أولاً : أنه افتراء مبالغ فيه . كما كشف عن أعداء مستترين وراء عنوان الإيمان ، يضررون عداءهم للدعوة .. ولصاحبها عليه السلام .

وفي سبيل كشف الافتراء .. والعداوة المقنعة بالإيمان ، أوحى الله بقوله : « لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا افك مبین . (أى كان ينبغي أن يكون موقفهم من شائعة الإفك هو هذا الموقف) لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم ياتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون » .. والمعنى : ألم يكن الأولى بكم - أيها المؤمنون - أن تكون لديكم في أنفسكم صورة خيرة عن علاقات بعضكم ببعض ، تدفع من أول الأمر : هذا الكذب ، وتعلنون على رؤوس الأشهاد : أنه افتراء واضح ؟ وألم يكن لديكم علم بأن مثل هذا الأمر - وهو القذف والاتهام في العرض - لا يثبت إلا بأربعة شهداء ؟ . فاذ لم يكن هناك شهداء أربعة فهو كذب في ذاته ، يحد قائله ومروجه ؟ .

ولكن مع ذلك استغل هذا الحادث أسوأ استغلال ، حتى ضاق صدر الرسول عليه السلام بعائشة رضى الله عنها .. وفترت العلاقة بينهما ، مدة من الزمن ، إلى أن كشف الوحي حقيقة الأمر .

ولو تدخل العامل الشخصي في كتابة القرآن ما ترك إنسان ما لقلبه : أن يكتب عن علاقته بمن هي أحب إليه من زوجاته ، مثل ما سجل القرآن هنا في وحيه للرسول عليه السلام في قصة الإفك واتهام عائشة رضى الله عنها ، في عرضها .

كما يسجل القرآن - بجانب قصة زينب بنت جحش ، وقصة الإفك بالنسبة لعائشة ، مما يدخل في نطاق خصوصيات الأسرة - ما كان يراود بعض زوجاته من الرغبة في الاستمتاع بمتع الدنيا .. حتى جاء الوحي يطلب للرسول عليه السلام أن يخبر زوجاته : بين البقاء معه وتحمل قسوة الحياة

في سبيل الدعوة .. أو المفارقة وعدم الالتزام بوضعها القائم . وقد جاء ذلك في قول الله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتم تردين الحياة الدنيا وزينتها (كما يحكى : أن بعضهن أردن الثياب .. وزيادة النفقة . وضاق بما طلبن : صدر رسول الله عليه السلام) فتعالين أمتعن (أى أعطىكن متعه الطلاق) وأسرحكن سراحاً جميلاً . (أى أطلقكن في إحسان وتهذيب) .

« وان كنتم تردين الله ورسوله والدار الآخرة (أى تردين القيم العليا وتكن في ذلك قدوة حسنة ، وتحصلن في الآخرة على جزاء الله) فان الله أعد للمحسنات منكن (وهن اللاتئى يحسن بالصبر في سبيل الدعوة ، وبمساعدة الرسول عليه السلام على أدائها ، وبسبعهن عنه كل ضيق صدر ، بسبب مشاكل الحياة المادية) اجراً عظيماً » (٢٢) ..

والرغبات المادية التي كانت تراود بعض زوجات الرسول عليه السلام : هي رغبات بشرية طبيعية لا يدل كشفها للرأى العام على شيء غير عادى في خصوصيات أية أسرة ، لو لم يكن ربها .. ولو لم يكن الزوج هو رسول الله ، بهذا العنوان . أما وإنه الرسول عليه السلام فالمفروض أن تأخذ كل زوجة له : نفسها بسلوك ، يعد مثلاً طيباً لغيرها من المؤمنات . ولذا جاء إنذار الله لهن قاسياً : في قوله :

« يا نساء النبي من يات منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيراً . ومن يقنت منكن (أى تطع) لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها اجرها مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً » (٢٢) ..

* * *

والآن لدينا دليان واضحان - وهما تسجيل العتاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سياسته : في الدعوة .. وفي سياسة الحرب مع الأعداء من جانب . والكشف عن بعض الأسرار الخاصة في أسرته عليه

السلام ، من جانب آخر - هذان الدليلان يدلان : على أن القرآن تجرد عن كل البواعث والميول الشخصية .. وأنه موضوعي ، بقدر ما يبعد عن الأمور الذاتية . وتجرد أى عمل عن البواعث والميول الشخصية لا يدل فقط على موضوعيته . وإنما يدل مباشرة على تفوقه .. إلى درجة الإعجاز .. وبالتالي على صلاحيته التامة لبناء الحضارة الإنسانية .

* * *

● موضوعية المبادئ وتجربتها :

فإذا أضيف إلى هذين الدليلين .. أو إلى هاتين الظاهرتين : موضوعية مبادئه ، وتجربتها تجردا تاما عن الميول والبواعث الشخصية .. فإن إعجاز القرآن يكون عندئذ حقيقة ملموسة ، لا ينكرها إلا من لا يفرق بين الموضوعي .. والشخصي : في التفكير .. وفي العمل الإرادى .. وفي تقييم الجمال في الحياة . ومن هذه المبادئ الموضوعية :

اولا : إن دعوة القرآن تؤمن برسالة الحضارة السابقة ، قبل عهد الرسول عليه السلام . يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضللا بعيدا » (٢٤) ..

.. فسوى في الإيمان برسول الله محمد عليه السلام الآن ، وبالرسل السابقين عليه .. وبالكتاب الذى هو القرآن ، والموحى به إلى رسول الله ، وبالكتاب الآخر السابق عليه في أى عهد من عهود الرسالة . لأن رساله الله في أى عهد تستهدف ما تستهدفه أية رسالة . وهو معاونة الإنسان على الانتقال من مستوى الجاهلية إلى مستوى الحضارة الإنسانية :

« يا بنى آدم اما ياتينكم رسل منكم (في أى عهد) يقصون عليكم آياتي فمن اتقى (فمن تجنب انحرافات الجاهلية) وأسس (بسلوك الهداية الإلهية .. وهى الطريق إلى الحضارة البشرية) فلا خوف عليهم ولا هم

يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢٥) . .

وثانياً : إنها تدعو إلى الترابط بين الأفراد على أساس القيم العليا في حياة الإنسان .. وليس على أساس العرق .. أو القبيلة . يقول الله تعالى :

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، (وحبل الله هو هدايته التي تتمثل في القيم الإيمانية العليا المستمدة من صفات الله سبحانه وتعالى . والاعتصام بهذه القيم هو الترابط والتماسك على أساس منها) .

« واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء (وذلك بسبب الترابط على أساس القبيلة والدم فيها . وهو رباط مادى) فالف بين قلوبكم (على أساس الإيمان بالله مركز القيم العليا) فأصبحتم بنعمته اخواناً (أى فى الإنسانية والحضارة البشرية) .

« وكنتم (أى على عهد القبيلة وتقاليدها ، والتمسك بهذه التقاليد) على شفا حفرة من النار فانقذكم منها ، (فالقبيلة كانت مصدر الحروب والخصومات بين القبائل بعضها وبعض . ولكن بفضل الإيمان جاء السلام والصفاء النفسى للعلاقات بين أفرادها) كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (٢٦) . . (وهداية الناس بآيات الله وكتابه هى اتباع خطوط الحضارة الإنسانية فيه ، والابتعاد عن ضلال الجاهلية) .. وكذلك يقول فى فضل الله على تآلف المؤمنين وترابطهم ، بعد الخصومات التى كانت مستمرة بينهم ، وتطمين الرسول على تماسك المؤمنين فى مواجهة مؤامرة الأعداء وخداعهم :

« والف بين قلوبهم ، (أى قلوب المؤمنين) لو انفقت ما فى الأرض جميعاً ما الفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، (برباط العقيدة والإيمان بدلا من الرباط المادى وهو رباط الدم والقراية) انه عزيز حكيم » (٢٧) . .

(٢٦) آل عمران : ٢٠٣

(٢٥) الاعراف : ٣٥ ، ٣٦

(٢٧) الأنفال : ٦٣

.. ولا شك أن الدعوة إلى الترابط على أساس الإيمان بالقيم العليا التي تمثل سمو الحياة البشرية : فوق لحمة الأسرة .. والقبيلة .. والشعب : هي دعوة خالصة لوجه الإنسانية ، ومجردة عن كل أثر لأي عامل شخصي .

وثالثاً : إنها تؤثر الاستمرار في الترابط والبقاء في دائرته على أساس هذه القيم .. وليس على أساس العصبية الأسرية .. والقبلية .. والشعوبية . يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وأخوانكم أولياء (أى أصدقاء يخلص بعضهم لبعض .. ويشير بعضهم على بعض) إن استحببوا الكفر على الإيمان ، (أى إن آثروا البقاء في الجاهلية .. ولم يرغبوا في الانتقال من مستواها .. إلى مستوى الحضارة البشرية) ومن يتولهم منكم (أى يصادقهم منكم) فاولئك هم الظالمون .

« قل ان كان آباؤكم وإبنائكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم (والعلاقة بين هؤلاء جميعاً هي علاقة الدم والقرابة الأسرية) وأموال اقتربتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله (أى إن كنتم تؤثرون : العصبية الأسرية .. أو المحافظة على المال ، أو على إنمائه .. أو الرتبة في المعيشة - وهي جميعها تصور خطوط الجاهلية - على القيم العليا في الحياة ، التي يمثلها الإيمان بالله ، ورسوله .. كما يمثلها الجهاد بالمال أو بالنفس في سبيل هذه القيم ، والتحول إلى مستوى الحضارة البشرية) فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، (أى انتظروا حتى يأتي الأجل المحدد لسقوط مجتمعكم ، وقيام مجتمع إنساني حضارى آخر بدلاً منه) والله لا يهدي القوم الفاسقين » (٢٨) ..

(وطالما لا يهدي الله أولئك الذين يخرجون في وضوح : عن الطريق السوى في الحياة : فانهم لا يستقرون في رياسة ولا في زعامة : « وان تنولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا امثالكم » (٢٩) .. بل يخلفهم أولئك الذين يؤمنون بالله وبالقيم العليا في الحياة) .

.. واستمرار الترابط على أساس من القيم العليا إن كان ظاهرة تدل على التجرد عن العوامل الشخصية .. فإن هذا الترابط على أساس منها أبقى

وأنتقى من الترابط على أساس العصية .. أو المال ، فالعصية في الأولاد .
أو المال في جمعه واكتنازه : كلاهما يتطوى على عامل التفرقة ، كما يتطوى
على عامل التجسيع . يقول الله سبحانه :

« يا ايها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ،
وان تعفوا وتصفحوا وتفغفروا فان الله غفور رحيم . انما أموالكم
وأولادكم فتنة ، (أى مصدر تجربة واختبار) والله عنده أجر عظيم . فاتقوا
الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وانفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح
نفسه فاولئك هم المفلحون » (٣٠) . . (والمفلحون إذن هم الذين يترابطون
على أساس الإيمان بالقيم العليا .. وليس على أساس العصية .. أو
المال) .

رابعاً : إنها تدعو إلى توفير الاعتبار الإنساني ، والكرامة البشرية لكل
فرد ، بغض النظر عن : اللون .. والنسب .. والعرق .. والجاه .. والمال :
يقول الله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم
ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم
(أى لا يعب بعضكم بعضاً) ولا تنازروا بالألقاب ، (أى لا تداعوا بالألقاب
المسيئة التي يحس المدعو بها : بأذى أو شين .. أو ذم له عندما يدعى بها)
بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، (فالإيمان من شأنه أن يسوى بين المؤمنين
في الاعتبار البشرى . والتداعى بالألقاب المسيئة من شأنه أن يعيد الفجوة في
هذا الاعتبار بينهم . وإذن التنازب بالألقاب : فسق وخروج عن مطلوب الإيمان)
ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون . يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن
ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا (أى لا تبحثوا عن أخبار بعضكم بعضاً) ،
ولا يفتب بعضكم بعضاً ، (والغيبة : أن يقال في الرجل من خلفه ما فيه من
عيب . فإذا قيل من خلفه ما ليس فيه : فهو بهت) ايحب احدكم ان ياكل لعن
اخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله ، ان الله تواب رحيم » (٣١) . .

.. ومن مستلزمات توفير الاعتبار البشري لكل فرد في المجتمع : أن ينتهى الإنسان فيه :

عن أن يسخر بغيره .. وعن أن يعيبه .. وأن يلقبه بما يكره .. وعن أن يحدد موقفه منه على أساس الظن وحده .. وعن أن يتجسس عليه ، ويبحث ليعرف أسراره .. وأن يقول من خلفه ما فيه من نقص وعيب . لأن كل واحد من ذلك من شأنه : أن يعكس صفو العلاقات الطيبة التي أحدثها الإيمان بالله ، والانتقال المشترك إلى مستوى الحضارة الإنسانية . ويقول الله تعالى أيضاً :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا (أى حتى تحسوا بالأنس من سكان هذه البيوت وبالترحيب بقبولكم في منازلهم) وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو اذكى لكم ، والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » (٢٢) .

.. وضمن القرآن بذلك : حرمة لسكن الشخص ، بعد أن أكد حرمة الشخص ذاتها . وهذا .. وذاك من عوامل توفير الكرامة الإنسانية للشخص في المجتمع .

خامساً : أنها تدعو إلى التفاضل بين الأفراد على أساس من التمايز بينهم في مستوى الإنسانية وحده .. وليس على أى أساس مادي آخر ، كالعرق .. أو القبيلة . يقول تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، (أى إذا كنتم وجدتم جميعاً من ذكورة وأنوثة ، وتساويتهم في ذلك .. ثم جعلتم فصائل من شعوب وقبائل ، وارتبطتم برباط الدم والقربى بناء على التناسل فيما بينكم .. فليس مؤدى ذلك : أن تختلفوا .. وتتصارعوا فيما بينكم .. وأن يخاصم بعضكم بعضاً . وإنما مؤداه : أن تجتمعوا على رباط آخر ، فوق رباط الدم والقربى . وهو رباط الإيمان بالله ، مركز الحضارة الإنسانية . فإذا انتقلتم عن طريق الهداية ..

إلى المستوى الحضارى فى تفكير الإنسان وسلوكه : ترابطتم على أساس القيم العليا فى حياة الإنسان . والترابط على أساسها : أدوم وأنقى) ؛ « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (ولذا : فالتفاضل بينكم منذ الآن يكون بمقدار المستوى فى تحقيق هذه القيم الذى يبلغه أى واحد منكم . وليس على الأساس المادى السابق من : المال .. والجاه .. والزعامة .. وعصية الأولاد .. وقراءة الدم فى الحسب والنسب) ان الله عليم خبير « (٢٣) ٠٠ (والله وحده هو الذى يعلم ما أبقى وأنقى فى حياة الإنسان ، مما هو مشتت ومفروق .. وهو مع علمه التام . الخبير أيضاً بحقائق كل ما يوصى به) .

سادساً : إنها : تبرز المسئولية الفردية . وعدم قبول المسئولية الجماعية :

« قل يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدى

لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل « (٢٤) ٠٠

.. فأبرز مسئولية الفرد فى إيمانه بالله .. وانتقاله بذلك إلى المستوى الحضارى الإنسانى ، فى التفكير .. وإدراك الجمال فى الحياة والعمل الإرادى . وكذلك أبرز مسئوليته عن حيرته وبقائه فى جاهليته . والرسول المبلغ لوحى الله لا تتجاوز رسالته : تبليغها إلى الأفراد . وبذلك لا يشارك غيره : المسئولية فى أى إتجاه يسلكه ، ويقول كذلك :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة الى حملها

(أى إن دعت نفس تحس بثقل حملها من الذنوب : غيرها لتعاونها فيما

تحمل فتشاركها بعض ذنوبها) لا يتحمل منه شيء ولو كان ذا قربى « (٢٥) ٠٠

(فلا تستجاب لما طلبت وتظل هى متحملة وحدها ما ارتكبت من أخطاء

وذنوب) .

وكما يقول : « وقال الذين كفروا لئن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين

يديه ، (وهو كتاب عيسى وموسى) ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم

يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا

انتم لكانا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا انحن صددناكم عن

(٢٤) بونس : ١٠٨

(٢٣) الحجرات : ١٣

(٢٥) فاطر : ١٨

الهدى بعد اذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمرونا ان نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، (أى كانت محاولتكم الخبيثة أنتم أيها المستكبرون ، المستمرة بالليل والنهار : هى التى أضلتنا عن الهدى بعد اذ جاءنا القرآن) .

« واسروا الندامة لما راوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ، (أى جميعاً ما بين مستكبرين .. ومستضعفين) هل يجزون الا ما كانوا يعملون » (٣٦) ..

.. ففى هذا الحوار بين الزعماء والرؤساء من جانب .. والتابعين لهم فى المجتمع من جانب آخر : تتجلى المسئولية الفردية .. وأن ليس للإنسان عذر ما فيما يقترفه . وبالأخص فيما يقيه فى دائرة الجاهلية ، ويحول بينه وبين الانتقال إلى المستوى الحضارى البشرى . وربما كان يفهم .. أو يعد مقبولاً فى إطار الاعتذار : قبول المستضعفين فى المجتمع : نصح المستكبرين ، أو أمرهم بالانصراف عن هداية الله لأنهم واقعون تحت تأثيرهم . ولكن جعل الأغلال فى أعناق الفريقين كجزاء لهما لم يترك شبهة فى المسئولية الفردية التامة لكل فريق منهما .

سابعاً : إنها : تدعو إلى أن تكون سرية أى اجتماع بين اثنين فأكثر على الخير وحده .. أى على عدم الاعتداء على الأقل على الآخرين ، يقول تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا اذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومقصية الرسول (تناجوا بالبر والتقوى ، وانقوا الله الذى اليه تحشرون » (٣٧) ..

.. فينهى عن التآمر وتدمير الاعتداء .. ويأمر بأن تكون سرية أى اجتماع متحضة للخير والمصلحة العامة . يؤثر السلام والصفاء فى علاقات الأفراد فى المناجاة وأحاديث الناس فى سرية ، على التدمير للهدم : فى « الخلايا .. وتحت الأرض » .

ثامناً : تدعو إلى أن تكون الرغبة فى السلام .. مصاحبة للإعداد لرد الاعتداء ، أى لا يكون هناك إعداد لقوة المجتمع ، غير مشفوع هذا الإعداد بإعداد نفسى آخر للسلام . يقول تعالى :

« واعدوا لهم (أى للأعداء) ما استطعتم من قوة (وهى القوة العددية .. والتنوعية) ومن رباط الخيل (وهى الحصون والقلاع) ترهبون به عدو الله وعدوكم (أى أن هدف هذا الإعداد ليس : الاعتداء .. ولا الفتح والتوسع . وإنما حمل العدو على التفكير والتروى عندما تسول نفسه الاعتداء .. وإنما إرهابه) وآخرين من دونهم لا تعلمونهم (أى ومع أعداء الله وأعداء المؤمنين الصرخاء المكشوفين لكم : أعداء آخرون متسترون من ورائهم . وهم معهم بالمشاركة فى إعدادهم وفى دفعهم ضد المؤمنين) الله يعلمهم ، (لأنه يعلم الظاهر والباطن .. والصريح والخفى . والمنافقون فى عداد هؤلاء الأعداء المتسترين) .

« وما تفقوا من شيء فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون . (والخطاب للأترياء فى الأمة للإتفاق على إعدادها فى مواجهة الأعداء : إعداداً مادياً) .

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها (وهنا يقرن القرآن حمل المؤمنين على الميل إلى السلام وقبوله ، بطلب الإعداد لأنفسهم لمواجهة عدوان الأعداء : مما يعبر هذا القرآن على أن الهدف الأصيل للدعوة إلى الإسلام : هو السلام . ولكنه سلام القوى ، وليس سلام الضعيف .. سلام المتيقظ ، وليس سلام الغافل .. سلام من يضحى بمتع الدنيا ليعيش عزيزاً ، وليس سلام من يستدل من أجل الاستمتاع بهذه المتع) وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم . (ولكى تشجع الدعوة الإسلامية المؤمنين إلى الميل إلى السلم وإلى قبوله : تطلب إليهم أن يعتمدوا على الله عند قبولهم للسلام ، ويعدوا عنهم القلق من أجل التفكير فى خداع الأعداء وغدرهم . فالله سميع لكل همسة منهم .. وعليهم بمجرى كل أمر يصدر عنهم . وطالما المؤمنون يأخذون أنفسهم بما يدعوهم الله إليه من غير تقصير .. فخداع أعدائهم لا ينال منهم إطلاقاً) ..

« وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى ايدك بنصره وبالمؤمنين » (٢٨) . (أى فالله هو المتكفل برد خداع الأعداء وبنصر المؤمنين

عليهم . إذ خديعة الأعداء ستكون مكشوفة للمؤمنين ، إذا لم يوالوهم ..
وإذا أخذوا منهم حذرهم .. وبقوا في قوة في مواجعتهم .. وآثروا ولاء
بعضهم لبعض ، على أن يميلوا إليهم . وطالما تكتشف الخديعة فآثرها
سلبى) .

تاسعاً : تدعو إلى تكافؤ إنتاج الإنسان وعمله من أجل الرزق في
الدنيا من جانب .. وعبادته لله من جانب آخر ، يقول تعالى :

**((يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من الجمعة فاسعوا الى ذكر
الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا
في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)) (٢٩) ٠٠**

.. فسوى القرآن في الأمر هنا : بين وجوب أداء صلاة الجمعة إذا حل
وقتها .. ومباشرة السعى بعد الانصراف من أدائها من أجل الرزق في ضروب
الحياة المختلفة : تجارة .. أو زراعة .. أو صناعة .. أو إدارة وإشراف على
عمل آخر . كما أوضح أن العبادة والمحافظة عليها مقدمة ضرورية لنجاح
الإنسان في حياته **((واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون))** .. سواء آكد
هذا النجاح في تحصيل الرزق .. أو في حسن العلاقة بين إنسان وآخر ،
في مجتمعه .

وهذه المساواة في الحرص على الأداء : بين العبادة .. والسعى من أجل
الرزق : تعطى الدليل على إيجابية الدعوة الإسلامية في حياة الإنسان ..
وعلى أن التوكل على الله الذى يطلب من الإنسان المؤمن بالله : ليس طريقاً
سلبياً . أى ليس تواكلاً ، أو إغضاء عن العمل . كما تعطى الدليل من جانب
آخر على أن المتع المادية ليست أموراً تنبذ إنما هى أهداف تحصل ليستمتع
بها الإنسان ، ولكن لا يسرف في الاستمتاع بها : **((وكلوا واشربوا
ولا تسرفوا ، انه لا يحب المرفين)) (٤٠) ..**

عاشراً : إنها تدعو إلى أن يكون : العدل .. والشورى .. والاطمئنان
إلى عدم اتباع الهوى ، من مقومات الحكم الصالح ، فيقول القرآن الكريم :
((ان الله يأمر بالعدل والاحسان)) (٤١) .. فيأمر بالعدل في كل جانب من

(٤٠) الاعراف : ٢١

(٢٩) الجمعة : ٩ ، ١٠

(٤١) النحل : ٩٠

جوانب الحياة . ثم على وجه الخصوص يأمر بالعدل في الحكم . فيقول :

« ان الله يامرکم ان تؤدوا الامانات الى اهلها (وهى امانة العمل وأداؤها بالدقة فيه .. وأمانة العهد والوعد ، وأداؤها بالوفاء بأى منها . وأمانة الأسرة وأداؤها بالإحسان فى رعايتها .. وأمانة الرأى وأداؤها بالنصح فيه .. وأمانة السلوك وأداؤها بالاستقامة فيه) وإذا حُكمتُم بين الناس ان تحكموا بالعدل » (٤٢)

ويأمر بالعدل فى المعاملة فيقول : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفساً الا وسعها » (٤٣) ..

وبالعدل فى القول ، فيقول : « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » (٤٤)

وبالعدل فى الشهادة ، فيقول : « يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله (مقيمين لأوامره ومطيعين لها) شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، (أى لا يحملنكم بغض قوم بسبب كفرهم مثلاً على عدم العدل نحوهم فتعتدون عليهم) اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، ان الله خير بما تعملون » (٤٥) ..

وبالعدل : بين ما يفعله الإنسان .. وما يتحدث عنه ، فيقول : « يا ايها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون . ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » (٤٦) (أى لا يجب الاعوجاج بالتحدث عن فعل كالمشاركة فى القتال مثلاً .. وعدم وقوع هذا الفعل) .

وبالعدل فى العهود ، والعقود ، بالوفاء بها : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم » (٤٧) .. (أى ما يجب أن يطلب فيه الوفاء من العهود هو ذلك النوع منها الذى يستهدف الخير .. والمصلحة العامة .. أو هو عهد الله) .

« يا ايها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » (٤٨) ..

(٤٣) الأنعام : ١٥٢

(٤٥) المائدة : ٨

(٤٧) النحل : ٩١

(٤٢) النساء : ٥٨

(٤٤) الأنعام : ١٥٢

(٤٦) الصف : ٢ - ٤

(٤٨) المائدة : ١

.. أما الشورى فيتحدث عنها القرآن في صفات المؤمنين ، على أنها جزء لا يتجزأ من قوام حياتهم ، فيقول : « **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم** » (٤٩) .. (وهو أمر الأسرة بين أفرادها .. وأمر الجيران بعضهم مع بعض .. وأمر الناس مع ولائهم وحكامهم) .

كما يطلب إلى الرسول عليه السلام باعتباره قائداً وحاكماً : أن يشاور من جديد : النفر من المؤمنين الذي كان من أسباب هزيمة المسلمين في غزوة « أحد » بعد أن يعفو عنهم .. ويستغفر لهم الله ، على ما وقع منهم من خطأ ، فيقول :

« **فبما رحمة من الله لنت لهم ، (أى لا تقسو عليهم واستمد موقفك هذا إزاءهم من صفة الرحمة التي هي بالغة حد الكمال في المولى سبحانه) . ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، (أى في شأن القتال عند خروجك مرة مقبلة مع المؤمنين جميعاً إلى مواجهة الكفار) فإذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين** » (٥٠) ..

.. فمع خطأ هذا النفر في شأن المؤمنين جميعاً : فإن القرآن يطلب من الرسول عليه السلام من جديد : أن يستطلع رأيه . ولو أن خطأهم كان نقداً ذاتياً لوضح الأمر في طلب مشاورتهم من جديد . ولكنه خطأ كان يرجع إلى الانصراف عن أهداف الدعوة في ميدان القتال .. كان يعود إلى مغاير الحياة الدنيا فيه . فطلب استطلاع رأيهم مع ذلك يدل على قيمة الشورى في حياة الناس وأثرها في الترابط في العلاقات بين أفرادهم .

حادى عشر : إنها تستنكر الاحتراف بالقيم العليا :

إذ أخطر شيء على هذه القيم هو الاحتراف .. وجعلها وسيلة ، وليست هدفاً في ذاته . والاحتراف بها يكون عادة من الداعين لها ، والجاملين لواء نشرها . وهنا يحذر القرآن أن يتحول أمر المؤمنين إلى الاحتراف بهذه

القيم ، على نمط ما كان عليه أحبار اليهود .. ورهبان النصارى ، كما جاء في قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل (وذلك عن طريق تدخلهم في تأويل ما يقع عليه : اسم الحلال .. أو اسم الحرام .. أو عن طريق إختفائهم بعض تعاليم الكتاب .. وإظهار البعض الآخر ، على أن يؤجروا على ما يقولون) ويصعدون عن سبيل الله » (٥١) . . (واحترافهم بالقيم العليا .. وأكلهم أموال الناس بالباطل عن طريق هذا الاحتراف : هو في حقيقة أمره : صد ، وإبعاد عن سبيل الله . لأن الاحتراف الآن سبيل معوجة . بينما سبيل الله هي دائما السبيل السوى) .

والقيم العليا التي يتجنب الاحتراف بها ليست فقط هي التي يحملها أصحاب رسالة الدين . بل هي التي يحملها في الأمة كذلك غيرهم : كالأطباء .. والمعلمين .. والقضاة .. ورجال الإدارة .. الخ .

فالأطباء والمعلمون .. يحملون علم الإنسانية في تطبيب المرضى .. وتعليم الناشئة . فإن هم استغلوا حاجة المريض إلى الشفاء .. والصبى إلى التعليم : وجعلوا العلاج والتعليم حرفة للاثجار والإثراء : كانوا كالأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

والقضاة ورجال الإدارة .. يحملون علم العدل وإحقاق الحق في قضائهم .. وإدارتهم . فإن هم احترفوا بالعدل وقبلوا الرشوة كانوا كذلك كالأحبار والرهبان في أكل أموال الناس بالباطل .

ورجال الجيش يحملون علم الدفاع عن الأمة وعن قيمها العليا وتثبيت شخصيتها المستقلة . فإن هم أثروا من حرفة الدفاع ولم يمثل في نفوسهم الإيمان القوى بالدفاع عما يجب أن يدافعوا عنه .. كانوا كذلك كالأحبار .. والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

وهكذا .. كل من يحمل قيمة عليا في عمله ونشاطه واحترف بها : فهو آكل لأموال الناس بالباطل .

ثاني عشر : إنها : تدعو إلى الرجوع بالخصومة في الرأي . إلى المصدر الأصيل للدعوة .. وليس لأقوال بعض المؤمنين فيه . فيقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول (وذلك باتباع كتاب الله .. وقدوة الرسول عليه السلام : قولاً .. أو عملاً) وأولى الأمر منكم ، (إن أدى هؤلاء الأمانة في ولايتهم للمؤمنين ، وحكموا بين الناس بالعدل ، طبقاً لما في كتاب الله . وجاء هذا الشرط في آية سابقة على هذه الآية .. في قول الله تعالى : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (٥٢)) فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله (أى إلى كتاب الله) والرسول (أى إلى قدوة الرسول عليه السلام) ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، (أى إن بقيتم على إيمانكم بالله وبعهدكم عن اتجاه المادية . وهو ذلك الاتجاه الذي يقوم على إنكار الإيمان بالله .. وباليوم الآخر ، تحت التأثير بإغراء متع هذه الحياة الدنيا) ذلك خير وأحسن تأويلاً » (٥٣) (أى والاتجاه في خصومة الرأي إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام : هو خير حل لمشكلتها بين المؤمنين ، لأنه رجوع إلى مصدر الإيمان نفسه .. ذلك المصدر الذي هو بعيد كل البعد عن الهوى والغرض .. والذي تجرد شأنه تماماً للصلحة العامة) .

ثالث عشر : إنها تدعو الأمة إلى التدخل بالإصلاح أولاً .. ثم بالقتال ثانياً ، إذا اشتبكت طائفة بأخرى فيها : في خصومة عنيفة أو قتال سافر . والتدخل بالإصلاح يراعى فيه العدل المطلق .. أى تراعى فيه المحافظة على الحقوق والواجبات التي لكل طائفة ، حسبما يقررها القرآن . والتدخل بالقتال يكون ضد الطائفة المعتدية منهما .. إلى أن ترجع عن اعتدائها ، فيصلح بينها وبين الأخرى التي كانت تتقاتل معها . يقول الله تعالى :

« وان طائفتان من المؤمنين (أى مجموعتان من المؤمنين) اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، (أى بالطريق إلى وقف القتال بينهما هو التدخل بالإصلاح بين الطائفتين . فإن كانت مثلاً : طائفة موسرة تشح بالإنفاق مما تملك .. وطائفة أخرى محرومة لا تأخذ حقها من أموال الموسرين : اشتبكتا في

قتال بينهما فالحل هو الإصلاح طبقاً لما جاء في القرآن من حمل الموسرين على الإنفاق ، على نحو ما قيل في صفات المؤمنين في قول الله تعالى : **« والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم »** (٥٤) . وحملهم يكون بالنصح . أو بالقتال . كما صنع أبو بكر رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة . وعلى هذا النحو : الإصلاح ما بين صاحب العمل .. والعامل . فلو اشتبكت طائفة العمال في خصومة أو في قتال مع أصحاب العمل : فيجب الإصلاح بين الطائفتين بإعطاء العمال ما لهم من حقوق .. وفرض أداء ما يجب عليهم من واجبات نحو أصحاب العمل . ولو اعتدت إحدى الطائفتين على الأخرى فيجب على المسلمين أن يقاتلوا الطائفة المعتدية حتى تفيء إلى أمر الله ، ثم يصلح بين الطائفتين (**« فان بقت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله ، فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ، ان الله يحب المقسطين »**) (٥٥) ..

.. وهذا التدخل بالإصلاح أولاً .. ثم بالقتال إن كان هناك اعتداء ، يجيء مؤسساً على ما يذكره القرآن بعد ذلك في قول الله تعالى :

« انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلمكم ترحمون » (٥٦)

.. والأساس الذي يذكره هنا هو أساس « الأخوة » في الترابط بين المؤمنين جميعاً . ومقتضى هذه الأخوة : أن لا يشجع الاعتداء من فريق على فريق .. وإنما يؤخذ حق المظلوم من الظالم منهما . والمسلمون جميعاً عدا الطائفتين المتنازعتين : ضد الاعتداء .. ومع إنصاف المظلوم من الظالم . وفي مقدمة المسلمين : ولائهم وحكامهم .

والقرآن لكي يحافظ على هذه « الأخوة » : استرسلت آياته - بعد هذه الآية - في نهى المؤمنين عن كل ما يمس هذا الأساس ، في أية صورة . فطلبت توفير الاعتبار البشري ، كما شرح سابقاً .. وتجنب الظن في المعاملة .. وتجنب التجسس في معرفة الأخبار .. وتجنب الغيبة . ثم أكدت : أن المستوى في تخير ذلك كله وفي إنقائه هو وحده معيار المفاضلة بين الأفراد :

« ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (٥٧) ..

(٥٥) الحجرات : ٩

(٥٧) الحجرات : ١٢

(٥٤) المارج : ٢٤ ، ٢٥

(٥٦) الحجرات : ١٠

رابع عشر : إنها تدعو إلى الحفاظ على النفس .. والمال . أى تدعو إلى المحافظة على حرمة النفس .. وحرمة المال ، تدعو إلى الأمان : فلا تمس نفس بسوء .. ولا يمس مال باعتهاء عليه .. تدعو إلى تجنب جريمتين يترتب على أى منهما : فناء المجتمع :

« يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، الا ان تكون تجارة عن تراض منكم ، (والأساس في التجارة أن يكون فيها ربح .. أى فيها أكثر من مساواة القيمة بين الطرفين . واستثناء التجارة هنا من أكل أموال الناس بالباطل ، معناه : جواز الربح : في تحصيله من البائع ، وفي قبوله من المشتري . أى شرعية عدم المماثلة تماما بين طرفي العقد . لأن الربح الزائد عن المماثلة هنا هو أجر على عمل في الواقع . وهو عمل التجارة . وهذا التحليل للتجارة يعطى من جانب آخر معنى أكل أموال الناس بالباطل . وهو حصول أحد الطرفين على مال من الطرف الآخر ، دون مقابل له : لهذا الطرف . فعملية النصب والتحايل .. والرشوة .. والمقامرة .. والغصب .. وما شاكل ذلك : تعد من أكل أموال الناس بالباطل . لأن مفهوم التجارة . وإن كان العمل الشرعى جزءاً منه .. فإن حرية الطرفين في التعامل في عقده : جزء آخر فيه . وهذه الحرية غير متوفرة في النصب والتحايل ، وفي الرشوة ، والغصب .. كما أن شرعية العمل غير متوفرة في المقامرة) .

« ولا تقتلوا انفسكم ، (والمراد بها أنفس المؤمنين . والمعنى : أن تقتل نفس نفساً أخرى من بينكم . ولكنه أضاف الأنفس إلى المؤمنين جميعاً : ليشير إلى أن فقدان أية نفس بالقتل من بين المؤمنين هو في حقيقته يخص المؤمنين جميعاً ، وليس فقط تلك النفس التي وقع عليها القتل) ان الله كان بكم رحيماً « (٥٨) .. (أى حين يطلب إليكم تجنب القتل ، بعد أن طلب منكم عدم أكل أموال الناس بالباطل . لأن كلا من الجريمتين يهدد المجتمع بالفناء . إحداها بفناء النفوس .. والأخرى بفناء من يمسها إلغاء الوظيفة الاجتماعية للمال . وهى تعلق حق المحرومين فيه) ..

خامس عشر : ترى دعوة القرآن : أن المادية هى عدو الحضارة

الإنسانية ، لأنها تجر الإنسان إلى : الحيوانية .. والبعث .. والفساد في الحياة البشرية : هي عدو أبدى ودائم للإيمان بالقيم العليا : « ولا يزال الذين كفروا في مرة منه (أى من القرآن ككتاب يسجل الدعوة إلى الإيمان بالقيم العليا) حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » (٥٩) ..

.. والماديون لا يخلصون أبداً لمن يؤمن بالقيم العليا .. وبالتحول إلى المستوى الحضارى البشرى للإنسان .. ولمن يدعو إليه : ومن هنا يجب أن لا يصادقوا :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » (٦٠) .. (إذ في مصادقتهم والتودد إليهم ما يحول دون الاحتياط منهم . فنفوسهم تنطوى على السوء ، كما تنطوى على الأمل في إبعاد المؤمنين عن إيمانهم) « ان يشفقوكم (أى يظفروا بكم) يكونوا لكم اعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » (٦١) ..

.. ومهما كان يرجى من نفع مادى منهم .. فما يحصله المؤمنون من نفع يعود على تماسكهم وترابطهم عند عدم مصادقتهم : أفضل وأعم مما يتصور لدى أولئك الماديين : « وان خفتهم عيلة (أى فقرا وحاجة بسبب مقاطعتكم لهم) فسوف يفتنكم الله من فضله ان شاء ، ان الله عليم حكيم » (٦٢) ..

.. وإذا كان من الحيطة : عدم مصادقة الماديين .. وعدم الدخول معهم في معاملات اقتصادية .. فالأسلم على اطلاق : مخاصمتهم .. ومقاتلتهم : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » (٦٣) ..

.. والقرآن - وهو رسالة السلام - إذا كان يطلب من المؤمنين : أن يقاتلوا في سبيل الاحتفاظ بإيمانهم وبعزتهم : أعداءهم الحقيقيين ، وهم الماديون ، فضلا عن عدم التقرب إليهم وعدم مصادقتهم وعدم انتظار النفع المادى منهم .. إذا كان يطلب القتال معهم : فإنه يطلبه كضرورة تفرضها

(٦٠) المتحنة : ١

(٦٢) التوبة : ٢٨

(٥٩) الحج : ٥٥

(٦١) المتحنة : ٢

(٦٣) التوبة : ٢٩

الحياة للمؤمنين أنفسهم . فطالما الماديون هم الأعداء الحقيقيون للحضارة الإنسانية التي تمثلها قيم الإيمان بالله ، وهم باقون على قوة لهم .. فالخطر سيلحق المؤمنين : إن اليوم .. أو غدا ، من عداوة هؤلاء .

وهذا على نحو ما كان على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام في الغزوات التي دار فيها القتال . والهدف من القتال يومئذ كان للوقاية ، ولم يكن للتوسع .. كان لحماية المؤمنين : قيم مجتمعهم من أعداء السوء له . وهم المشركون ، أو الماديون الوثنيون في شبه الجزيرة .

وآية القتال للمادين السابقة نزلت ، بعد أن كانت للمسلمين قوة : نوعية .. وعددية ، يستطيعون أن يواجهوهم بها . فهي من آيات سورة التوبة ، وقد نزلت بعد المائدة . وهذه الأخيرة نزلت في حجة الوداع بعد فتح مكة . وكان المؤمنون إذ ذاك يمثلون قوة إيمانية .. وعددية مرموقة ، ويخشى منها .

فإذا لم يكن المؤمنون على قوة كافية لمواجهة المادين بالقتال في وقت من الأوقات : فالأمر يقف بالمؤمنين عند حد عدم الولاء للمادين . ولهم أن لا يجاهروا بعدم الولاء لهم ، تقية منهم ، كما جاء في سورة آل عمران :

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفصل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذرکم الله نفسه (وإعلان تحذير الله للمؤمنين هنا : دليل على خطورة موالاتة المؤمنين لأعدائهم ، وبالأخص المادين منهم : على مجتمعهم .. وأمتهم .. وقيمتهم)
والى الله المصير » (٦٤) ..

.. والقتال - وهو سبيل من سبل الوقاية - وإن كان مكروها للنفوس ، إلا أنه ينطوى في حقيقته على خير للبشرية . وهو صيانة الحضارة الإنسانية من الدمار والتخريب الذي تسعى إليه المادية بكل ما تملك من قوة : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، (كالتخلف عن القتال في سبيل القيم العليا ، فإنه شر لا يصيب المتخلفين وحدهم ، وإنما البشرية كلها :

« واتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة » (٦٥) .. (وهي فتنة
التخلف عن القتال . والذين ظلموا هم المتخلفون الذين رضوا أن يكونوا
مع القواعد من النساء) : إِنَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (٦٦) ..

* * *

وهذه النماذج من المبادئ في القرآن الكريم تصور : « التجرد التام »
في قيمتها .. وفي تحليلها . لأنها ترجع جميعها إلى الاحتفاظ بقيمة الإنسان
كفرد .. وإلى احترام حرمة :

١ - فالإيمان مثلا برسالة الحضارة البشرية السابقة ، هو استمرار
للاعتراف بالقيم العليا التي جاءت بها الرسالة السابقة ، من أجل تقدير
الإنسان وصيانة حرمة . وليس اتكاسا .. ولا هدمًا وتخريبًا لأي جانب من
جوانب هذه الحضارة .

٢ - والترابط بين الأفراد على أساس القيم العليا وحدها في حياة
الإنسان .

٣ - وكذا إثارة استمرار الترابط على هذا الأساس .

٤ - وتوفير الاعتبار البشري لكل فرد .

٥ - والتفاضل بين الأفراد على أساس التمايز في المستوى البشري .

٦ - وإبراز المسؤولية الفردية - دون المسؤولية الاجتماعية .

٧ - واستهداف الخير وحده من أي اجتماع غير علني .. كل هذه
المبادئ تتصل مباشرة بكرامة الفرد ، والحرص عليها .

وليس أقل من هذه المبادئ وضوحًا وتجردًا : لاحترام الفرد وحرمة ،
ما جاء في هذه النماذج ، من أن :

٨ - رغبة السلام .. تصحب الإعداد لرد الاعتداء في الأمة .

٩ - وتكافؤ السعي والعمل من أجل الرزق .. مع عبادة الله .

- ١٠ - والعدل .. والشورى ، من أسس نظام الحكم الإنسانى .
- ١١ - واعتبار الاحتراف بالقيم العليا ، رجوعا بالحضارة .. إلى الجاهلية .
- ١٢ - وتحكيم المصدر الأصيل للمبادئ العامة ، عند التخاصم فى الرأى بين الأفراد .
- ١٣ - وتدخل الأمة بالإصلاح ، عند مواجهة مجموعة فيها بأخرى .
- ١٤ - وصيانة النفوس والأموال من الضياع . بغير سبيل مشروع .
- ١٥ - واعتبار العدو الأول للحضارة الإنسانية هو المادية وتوجيهها .

* * *

إن جانب تجرد المبادئ القرآنية من الهوى .. والحزبية .. والعصية .. ومن أى عامل شخصى آخر : هو جانب رئيسى فى إعجاز القرآن .. وبالتالي : هو آية على صلاحيته للإنسان ولتوجيهه صلاحية تامة ، بغض النظر عن مرور الزمن .. أو اختلاف الشعوب والأمم . وكذلك آية على صلاحيته لتأسيس الحضارة الإنسانية عليه ، تلك الحضارة التى تستهدف الإنسان : فى كرامته .. وفى حرمة فى سكنه .. وفى حرمة فى ماله الخاص .. وفى حرمة فى نفسه ، وأمنه من الاعتداء أو الإرهاب .. وفى حرمة فى سعيه وفى عمله .. وفى حقه فى العدل .. وفى إبداء الرأى .

والعمل الإنسانى الذى هو : وليد هذه الحرية .. وآت عن طريق استعمال الحق الإنسانى : هو الصور الواضحة للحضارة الإنسانية .

فالقرآن معجز .. وفى الوقت نفسه مصدر للحضارة البشرية .

* * *